خاتمـــــــة

وبعد ، ليس الغرض من هذه الكلمة الختامية أن تكون تلخيصا لما انتهى اليه الكتاب من نتائج ، والا صار الأمر تكرارا لامبرر له • وانما أردت بهذه الكلمة أن أعبر عن النتائج التى انتهيت اليها والتى أعتقد أننى ان لم أكن توصلت اليها فقد أكدتها •

والفكرة الأولى التى أردت توكيدها فى الفصل الأول ، هى أن بلاد الشام خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، عاش منها مزيج عجيب من الناس ، مكونا بذلك مجتمعين أساسيين هما المجتمع الاسلامى والمجتمع الصليبى • والمجتمع الاسلامى تألف من جنسيات عرقية وطوائف دينية عديدة ، منها القبائل العربية التى ترجع فى أصولها الى القحطانيين ، والعدنانيين ، والأكـــراد ، والتركمان ، والاتراك • وثمة طائفة لعبت دورا خطيرا فى الصراع الدائر بين المسلمين والصليبيين ، تلك الطائفة المعروفة بالاسماعيلية أو الباطنية ، التى استطعت أن أحدد أهدافها وخصائصها • ومن الطوائف التى ألقيت الضـــوء عليها : الدروز ، والنصيرية • وقد حرصت على رسم الاطار العام لكل من هذين المجتمعين وبيان حدوده وأبعاده •

وبمجىء الحملة الصليبية الأولى الى بلاد الشام ، واستيلائها على بيت المقدس عام ١٠٩٩ م ، كان ولابد أن يأخذ العنصر اللاتينى مكانه بين عناصر السكان الموجودة • فالمجتمع الصليبى الذى استعرضته ـ فى الفصل الثانى ـ ساهم فى وجوده العديد من الجنسيات التى وفدت من جميع أنحاء الغرب الأوروبى مثل الفرنسيين ، والألمان ، والنورمان ، والأسبان ، والبيازنة ، والجنوية ، والبنادقة ، والانجليز، وغيرهم • وعلى الرغم من أن الفرنسيين كانوا أحد العناصر التى سيطرت على بلاد الشام ابان الحروب الصليبية ، الا أنها وضعت بصماتها الواضحة على احداث تلك الحروب ، فى اللغة والنظم الاقطاعية والفن ـ

وفى ذلك الفصل أيضا أبرزت الدور الذى قامت به المدن الايطالية : بيزة وجنوة والبندقية • وبذلك صارت بلاد الشام مجتمعا عالميا ، فريدا فى نوعه •

أما عن الأقليات الدينية التى عاشت مع المسلمين جنبا الى جنب قبل مجىء الصليبيين ، وهم طبقة المسيحيين الشرقيين المحليين ، والبيزنطيين (الاغريق) ، والسريان ، واليعاقبة ، والأرمن ،والموارنة ، والأقباط ، واليهود، والسامرة ، والنساطرة ، فقد أوضحت ميول وظروف كل منها خلال فترة الحروب الصليبية •

غير أن بلاد الشام شهدت ابتكارا فذا ، أوجده نجاح الحملة الصليبية الأولى ، ويتمثل ذلك فى الطوائف الدينية الحربية التى جمعت بين حياة الرهبنة والفروسية فى رباط واحد • وأهم تلك الطوائف ، طائفتا الاسبتار والداوية ، وأقلها شأنا طوائف الفرسان التيوتون ، وسانت لازاروس ، وسانت توماس وغيرهم • وقد أوضحت الدور التى لعبته تلك الطوائف فى الدفاع عن مملكة بيت المقدس الصليبية ، وكيف صارت على درجة خطيرة من القوة واتساع النفوذ ونمو الثروات الضخمة •

ولايستطيع المرء التحدث عن المجتمع الصليبى ببلاد الشام دون اغفال الطبقات التى تألف منها وهى : الأرستقراطية الحاكمة من النبلاء والفرسان ، التى كانت العمود الفقرى للمجتمع الصليبى ، وطبقة البولانيين وهم الأبناء المنحدرين من الزيجات المختلفة بين الفرنجة والمسيحيين الوطنيين ، وطبقة الأحرار أو البورجوازية ، وطبقة الرقيق أو الأقنان • ومن الثابت أن البناء الاجتماعى للكيان الصليبى بالشام تألف من طبقات مختلفة ، غير متجانسة ، ظلت متميزة بالفوارق الواضحة •

ومع اعترافنا بوجود بواعث عديدة للحركة الصليبية ، فان العامل الاقتصادى كان بالغ الأهمية ، اذ أن الصليبيين سعوا وراء تحقيق مكاسب اقتصادية فى الشرق العربى • والمتتبع لدور الصليبيين فى تجارة الشام ، يتضح

له انهم لم يجنوا من ورائها الا ارباحا ضئيلة • واعتقد أننى استطعت فى الفصل الثالث ان القى المزيد من الضوء على النشاط التجارى للمدن الايطالية ، فلاريب أنها كانت ـ أول الأمر ـ بالغة الحذر ازاء الحركة الصليبية ، وبالغة الميل الى التمهل فى بذل ماوعدت به من مساعدة ، ولكنها غيرت رأيها بعد أن أدركت أن الحروب الصليبية الأولى تبشر بالنجاح ، ومن ثم بادرت الى ارسال أساطيلها الى الشرق الأدنى لمساعدة الصليبيين ، مقابل امتيازات فى كل مدينة أسهموا فى الاستيلاء عليها • وعالجت فى ذلك الفصل طرق التجارة البرية والبحرية المؤدية الى الشام ، وأهم المراكز التجارية وما ارتبط بها من ازدهار على عصر الصليبيين • وكشف النقاب عن أهم السلع التى كانت محور النشاط التجارى ببلاد الشام ، فقد أولع الغرب الأوروبى بالسلع الشرقية واشتد اقباله عليها ، خاصة التوابل التى حازت المكانة الأولى بين تلك السلع حتى نهاية العصور الوسطى • وانتقلت بعد ذلك الى النظم والمعاملات التجارية المختلفة ، التى خدمت النشاط التجارى ببلاد الشام •

أما الفصل الرابع ، فقد كان مجاله الحديث عن الفنون الحربية على زمن الحروب الصليبية • ومن الواضح أن المسلمين والصليبيين كان لكل منهم خصائصه الاستراتيجية فى الهجوم والدفاع والتكتيك والأسلحة • ولما كانت اللياقة البدنية ضرورية للجند فى كل عصر ، بوصفها تكسب الجسم المرونة والرشاقة والنشاط ، فقد حرصت على أبرازها • وكان لابد أن نلم بالتربية الاجتماعية فى المعسكر الاسلامى ، بالاضافة الى الروح المعنوية التى لاغنى عنها لاحراز النصر ، فبفضلها أمكن انقاذ موقف المسلمين المتهالك ، وانتزاع النصر من براثن الهزيمة •

وقد أدى النقص فى القوة البشرية الى جعل الصليبيين يبنون القلاع الهائلة • ولكى يحتفظوا بتثبيت أقدامهم على الشاطىء كان عليهم أن يحتفظوا بالسيادة على صلتهم بالبحر ، ولهذا شيدوا سلسلة من الأبراج والقلاع والحصون من أجل تأمين العمليات الحربية • وقد استفاد الصليبيون من

أساليب العمارة الحربية للبيزنطيين والعرب • على انهم لم يقفوا عند حـــد الافادة والاقتباس ، بل أضافوا من عندهم اضافات جديرة بالاهتمام • وعلى الرغم من القلاع والحصون الضخمة التى بناها الفرنجة ببلاد الشام ، الا انها فى النهاية سقطت فى ايدى المسلمين • ويرجع السبب فى ذلك النقص فى القوة البشرية الفرنجية ، والجهد النفسى ، والمعاناة ، اذ ظل الصليبيون ـ كقـــوة محاربة ـ فى حالة من اليقظة المستمرة والرقابة والخوف • ومن المشاهد تطور أساليب الحصار واسلحته فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، فضلا عن تجهيز القلاع بالمؤن والامدادات التى تكفى حصارا طويلا • وعندما وقع عبء الدفاع عن مملكة بيت المقدس الصليبية على كاهل الطوائف الدينية العسكرية فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، نتيجة ضغط القوات الاسلامية ، صار لتلك الطوائف قلاعها وحصونها التى تميزت بالضخامة والمناعة والقوة ، فضلا عن أنها ارتبطت بنظام صارم • وعلى أية حال ، فان بلاد الشام خلال فترة الحروب الصليبية ، كانت تمثل بيئة غنية من التحصينات الحربية من الطراز الأول ، لم تتوفر فى أى بقعة أخرى من العالم •

ومن المؤكد أن الحروب الصليبية التى اتخذت من بلاد الشام مسرحا لأحداثها مدة تقرب من قرنين من الزمان ، أدت الى وجود احتكاك حضارى بين المسلمين والصليبيين ، الامر الذى أدى الى انتقال بعض التأثيرات الحضارية الاسلامية الى الغرب الأوروبى • وقد كان من الصعب فى عصر الحروب الصليبية ـ كما أوضحت فى الفصل الخامس ـ ، ايجاد تفاعل فكرى بين الفرنجـــة والمسلمين ، لأن ذلك التفاعل لايتم الا فى ظل استقرار كامل • هذا بالاضافة الى أن مجتمع الجنود والتجار لم يهيىء فى الواقع مناخا صالحا لاقامة مستوى فكرى رفيع • وقد أوضحت فى ذلك الفصل الانتاج العقلى للفرنجة ببلاد الشـــام ، والفوارق الحضارية فى الناحية الفكرية بينهم وبين المسلمين •

وبسبب الدروس المستقاة من الحروب الصليبية ، بلغ الصليبيون شأوا بعيدا فى التسامح الدينى ، بعد أن وقفوا على صورة أوضح وأضبط عن الاسلام

والمسلمين ، وهم الذين كانوا فى نظر الغرب الأوروبى « كفارا » وثنيين • وابرزت فى الفصل الخامس أيضا أن الحروب الصليبية كشفت الستار عن خيبة الصليبيين ، وفشلهم فى انتزاع بيت المقدس من أيدى المسلمين ، ليقيموا دولة مسيحية فى قلب العالم الاسلامى ، ولهذا رأوا ضرورة التفكير فى اجتذاب المسلمين الى اعتناق الديانة المسيحية عن طريق التفاهم والاقناع وهو تحول أرسى قواعد الحركة التبشيرية المسيحية •

أما عن التداخل والاختلاط والتفاعل الاجتماعى بين المسلمين والصليبيين، فالواقع أن الحروب الصليبية ببلاد الشام أتاحت فرصة طيبة لذلك ، لأن انقضاء الجيل الأول من الصليبيين ، جعلهم ينسوا تعصبهم الدينى الأعمى ، وربطت بينهم وبين المسلمين العلاقات الودية من جراء طول المعاشرة ، وقد اختلفت عنهم جموع الصليبيين الذين كانوا يفدون من الغرب الأوروبى ، وقلوبهم مفعمة بالغلظة والجفاء •

وقد وضح فى ذلك الفصل كيف أن كبار السادة الاقطاعيين الصليبيين ، قد تبنوا عادات المسلمين وتقاليدهم فى الأزياء والاطعمة والأشربة والحمامات الشرقية • وثمة عادات سار عليها الصليبيون ، لكن المسلمين استنكروها ورأوا فيها خروجا على مبادىء الشريعة الاسلامية ، وجهلا بأبسط القواعد الانسانية ، مثل أساليب معاقبة المجرمين والمذنبين • وهنا لابد من عقد مقارنة بين فروسية الشرق ممثلة فى صلاح الدين الأيوبى ، وفروسية الغرب الأوروبى ممثلة فى ريتشارد قلب الأسد • وقد ظهر التناقض واضحا بين تصرفات الاثنين، فالاول غلب عليه الرحمة والمروءة والانسانية ، أما الأخير فقد غلب عليه تقلب المزاج والغدر ، بشهادة المؤرخين المعاصرين وغير المعاصرين •

ومهما كان الأمر ، فان الحركة الصليبية ببلاد الشام بالنسبة للغرب الاوروبى ، كانت مغامرة فاشلة كلفته الكثير من التضحيات فى الأرواح والأموال،

ولكنها بالنسبة للعلاقات بين الشرق والغرب ، كانت لقاء حضاريا ، مكن الغرب الأوروبى من النهوض من سباته الطويل • وبمعنى آخر ، اذا كانت الحركة الصليبية فشلت كمحاولة مبكرة قصد بها استعمار الشرق الأدنى ، الا انهـا فتحت الغرب الأوروبى على آفاق جديدة ، وساهمت فى احداث التغيرات والأفكار الجديدة التى خرجت به من عزلته •

* * *